٩٩/ ٣ ـ ٤/٢٣

الاجتهاد

مجلة متخصصة تعنى بقضايا الدين والمجتمع والتجديد العربي الإسلامي

العدد الخامس والعشرون

السنة السادسة

خريف العام ١٤١٥هـ/١٩٩٤م

رئيسا التحرير
الفضل شلق ورضوان السيد

مدير التحرير المسؤول
محمد السماك

مكتبة الروضة الحيدرية
الرقم ٨١٠٩
التاريخ / ٢/١٢/ ٢٠١٤

تصدر عن:
دار الاجتهاد للأبحاث والترجمة والنشر
ص. ب. : 5581/14 ـ بيروت ـ لبنان ـ تلفون: 866666، 862205
ساقية الجنزير ـ بناية برج الكارلتون ـ الطابق الثاني

عمر فروخ والاستشراق (*)

ميشال جحا

I

تمهيد

يتصوّر البعض أن المرحوم الدكتور عمر فروخ ـ (1906 ـ 1987) الذي نحتفل اليوم بذكرى مرور سبع سنوات على وفاته ـ كان «مُسَرْسَباً» وسَيِّءَ الظن بالنسبة إلى المستشرقين، مهاجماً للاستشراق، حاملاً عليه خالطاً بينه وبين التبشير والاستعمار. كما يفعل العديد من الناس الموتورين والمتحاملين وغير المطّلعين.

بيد أن الباحث المدقّق المُنصف يتبيّن له أن الدكتور فروخ كان منصفاً ولم يكن يرفض كل ما قام به المسشرقون. كان يُقر بالحق متى اقتنع بأن المستشرق الباحث كان على حق فيما يقول.

وهو بالتالي لم يكن يقول بأن الاستشراق كله شر أو أنه كله خير. بل إنه يرى أن فيه أشياء خيّرة كما أن فيه أشياء شريرة يجب كشفها والرّد عليها.

فالعلّة، على كل حال، ليست في الاستشراق بل في بعض المستشرقين وفي استغلال الاستشراق والمستشرقين لأهداف ومآرب سياسية استعمارية أو تبشيرية.

(*) ألقي هذا البحث في ندوة عقدت في «المنتدى» بتاريخ 8/ 12/ 1988 تكريماً لذكرى المرحوم الدكتور عمر فروخ.

والدكتور فروخ فوق ذلك حريص على سمعة الإسلام والعروبة يهبّ للتصدي والدفاع عنهما متى أحسّ أن هناك محاولة للدّس والتجني عليهما. وهذا من حقه بل ومن واجبه الديني والقومي.

وحول ذلك يقول الدكتور هشام نشّابة:[1]

«ولو أن عمر فروخ درس الإسلام والتراث الإسلامي والعربي في جامعات إسلامية لهان الأمر عليه، إذ لا يكون قد اطّلع على ما يُكتب عن الإسلام والعرب والمسلمين في البلاد غير الإسلامية وفي اللغات الأجنبية المختلفة مما يتحدى شعور المؤمن الغيور على دينه وتراثه. ولكن الدكتور عمر فروخ قد درس في الجامعات الغربية في لبنان وفي ألمانيا وتعرف عن كثب على أنماط من المستشرقين؛ ومنهم المتهجم المتعصب، ومنهم الداعية المبشّر، ومنهم الناقم الحاقد وقلة قليلة منهم مقدّر، ورصين.

ولكن أشقَّ ما تعرض له عمر فروخ، في تقديري، هو ما خبره في لبنان إذ رأى بعض اللبنانيين يسلكون طريق المستشرقين المتعصبين وبعض المبشرين فيعملون على تشويه تاريخ العرب والمسلمين ويتطاولون على مقدساتهم. فكان لهذا التجنّي على الإسلام والعرب أعمق الأثر على كاتبنا الكبير وأسوئه. إذ رسخ عنده شك مقيم بغايات جميع المستشرقين والمبشرين بل وبالذين يتتلمذون في مدارس الاستشراق المختلفة. فهو يسيء الظن بكل ما يصدر عن هؤلاء جميعاً. وعسير جداً، في مثل هذه الحال، أن يكون العالم موضوعياً هادئاً لا يردّ الصاع صاعين وهو يعلم أن ما يُقال عن الإسلام والعرب محضُ افتراء».

أما أنا فسأحاول في بحثي هذا إنصاف الرجل وتبيان آرائه ومواقفه من الاستشراق والمستشرقين وإظهار صِلاته وعلاقاته مع العديد منهم ممن عُرفوا بسعة العلم ورجاحة الفكر وطول الباع.

---

(1) كتاب تكريم العلاّمة الدكتور عمر فروخ. تقديم وجمع وتحقيق د. حسان حلاق، بيروت 1408 هـ/ 1988 م، (ص 187 ـ 188) (نشر في مجلة الشراع 11/ 1/ 88).

الدكتور عمر فروخ تلميذ المستشرقين فقد دَرَسَ في عدد من جامعات ألمانيا الشهيرة قبل الحرب العالمية الثانية ما بين سنتي 1935 و1937 ونال شهادة الدكتوراه من جامعة ارلنجن (Erlangen) في 27/ 8/ 1937. كما دَرَسَ في كل من جامعة برلين (Berlin) وليبزيج (Leipzig) على عددٍ من كبار المستعربين الألمان أمثال:

- يوسف هَلْ Josef Hall (1875 ـ 1950).
- يوليوس روسكا Julius Ruska (1867 ـ 1949).

وهو متخصص بالعلوم عند العرب

- هانس هاينريش شيدر Hans Heinrich Schaeder (1896 ـ 1957).
- والتر بيوركمن Walter Bjorkman (1896 ـ).
- لايونهارد روست Leonhard Rost (1896 ـ) كما تعّرف على أوغست فيشر August Fischer (1865 ـ 1949) في ليبزيج وهو متخصص باللغة العربية وبالمعجمات. ويوجين ميتفوخ Eugen Mittwoch (1867 ـ 1942).

فالدكتور فروخ من القلائل الذين أُتيحت لهم الفرصة للدراسة على مثل هذا العدد من المستشرقين الألمان المعروفين في أواسط هذا القرن.

وفي فرنسا حضر دروساً على أساتذة بارزين أمثال:

- ليفي بروفنسال Levi Provençal (1894 ـ 1962) وهو متخصص بتاريخ الإسلام في الأندلس ويقول عنه إنه كان منصفاً برغم أنه كان يهودياً.
- لويس ماسينيون Louis Massignon (1883 ـ 1962) وهو متخصص بالتصوف ويصفه لنا بأنه ذكي جداً.
- وليم مارسيه William Marçais (1874 ـ 1956) الذي يقول عنه إنه كان يُجيد التكلم باللهجات العربية وخاصة اللهجة الشاميّة والمغربيّة وهو عالم بالحضارة الإسلامية. (1) وهؤلاء المستشرقين يُعدون من كبار المستشرقين المشهورين في

(1) حول دراسته في جامعات أوروبا راجع كتابه «غبار السنين»، دار الأندلس، بيروت 1985، =

زمانهم والمشهود لهم كلٌّ في موضوع اختصاصه.

كما أنه كان على اتصال ببعض كبار المستعمربين من مختلف الجنسيات وعلى اطلاع على بعض مؤلفاتهم وآرائهم حول القضايا العربية والإسلامية وغالباً ما كان يتصدّى لها ويردّ عليها إذا ما وجد فيها خطأً أو تحاملاً. وهو من دون شك قد غرف من علمهم وتأثر بهم وبأخلاقهم وأخذ عنهم طول الأناة وشدة المثابرة على البحث والتقصّي.

ولم يقف عمر فروخ عند حد الدراسة على المستشرقين والاستفادة من علمهم والأخذ عنهم وإقامة روابط وصلات وثيقة مع بعضهم والتصدي لآرائهم والردّ عليها، بل إنه نقل إلى العربية بعض الكتب التي وضعها مستشرقون لتعم فائدتها. كما سنرى فيما بعد.

II

أين نجد آراء الدكتور عمر فروخ حول الاستشراق والمستشرقين؟ نجد ذلك في المصادر الخمسة التالية:

أولاً: في الكتب التي نقلها عن المستشرقين والتي سنعرض لها بعد حين.

ثانياً: في كتاب «التبشير والاستعمار في البلاد العربية»[1] الذي وضعه بالاشتراك مع الدكتور مصطفى خالدي.

ثالثاً: في كتابه «غبار السنين»[2] وهو يضم نبذات من حياته بين 1916 و1982.

رابعاً: في بحث له عنوانه: «المستشرقون: ما لهم وما عليهم» نشر في «كتاب الاستشراق»[3] وفيه نجده واقعياً منصفاً وقد خفّت نقمته على المستشرقين.

= (ص 54 ـ 55 ـ 63 و75). وكذلك كتاب التكريم، (ص 58).

(1) بيروت، المكتبة العصرية، طبعة أولى 1953، وطبعة خامسة 1973.

(2) دار الأندلس، بيروت 1985.

(3) العدد الأول: كانون الثاني 1987، أعظمية بغداد، العراق.

خامساً: «المستشرقون وطبقاتهم»[1]؛ وهو آخر ما كتبه حول موضوع المستشرقين وقد صدر بعد وفاته.

أ ـ الكتب التي ترجمها عن الإنكليزية إلى العربية:

1 ـ «الإسلام على مفترق الطرق»[2] (Islam At The Crossroad) واضع هذا الكتاب هو المستشرق النمساوي ليوبولد فايس Leopold Weiss (1900 ـ 1985) الذي اعتنق الإسلام واتخذ اسم محمد أسد.

وفي المقدمة التي وضعها الدكتور فروخ لترجمته لهذا الكتاب يعلّل لنا السبب في إقدامه على نقله إلى العربية فيقول (ص 9): إن أهم المشاكل التي تواجه المسلمين اليوم هي الموقف الذي يجب أن يتخذه المسلمون تجاه المدنية الأوروبية.

ثم ينقل عن فايس (ص 58 ـ 59) قوله: «الواقع أن المستشرقين الأولين في الأعصر الحديثة كانوا مبشّرين نصارى يعملون في البلاد الإسلامية. أما تحامل المستشرقين على الإسلام فغريزة موروثة وخاصة طبيعية تقوم على المؤثرات التي خلفتها الحروب الصليبية، بكل ما لها من ذيول، في عقول الأوروبيين الأولين».

2 ـ كما نقل كتاب المستشرق البلجيكي الأصل الأميركي الجنسية جورج سارطون Georges Sarton (1880 ـ 1956) الأستاذ في جامعة هارفرد: (The Incubation of Western Culture In The Middle East Washington 1951. تحت عنوان: الثقافة الغربية في رعاية الشرق الأوسط:[3]

يقول في (ص 14) وهو يعرّف بنشاط الأستاذ سارطون متناولاً كتابه الضخم

(1) مجلة «نور الإسلام»، بيروت العدد الأول، السنة الأولى جمادي الثانية 1408 هـ يناير ـ فبراير 1988.

(2) تأليف ليوبولد فايس ـ دار العلم للملايين، بيروت، طبعة أولى 1946، وطبعة سابعة 1971.

(3) بيروت، طبعة أولى 1372/ هـ 1952، طبعة ثانية 1383هـ/ 1963.

«مقدمة إلى تاريخ العلم» الذي يتناول تاريخ العلوم الرياضية والطبيعية والعقلية في العالم كله منذ أقدم الأزمنة وعند جميع الأمم وفي جميع اللغات؛ وهو أوفى ما كتب في هذا الباب: «والدكتور سارطون في كتابه هذا، وفي جميع ما كتب، من المنصفين للعرب والمسلمين في جهودهم التي بذلوها في هذا الميدان»، أي ميدان العلوم.

ثم يقول (ص 17) في المقدمة التي وضعها لهذا الكتاب: «هذه محاضرة قيّمة أنقلها لقراء العربية حباً بما فيها من معارف جليلة ومن ملاحظات صحيحة. والدكتور سارطون كاتب هذه المحاضرة جد منصف للعرب وللمسلمين، ولكن له أيضاً ملاحظات قد لا تسرّنا كثيراً. على أن هذه الملاحظات إذا كانت تحتمل مأخذاً فإنني سأعلق عليها إذا مررت بها، وأما إذا لم يكن فيها مأخذ فيجب أن نجعل منها عبرةً لأنفسنا».

3 ـ وينقل كذلك كتاب الدكتور فيليب حتي (1886 ـ 1978) ـ اللبناني الأصل الأميركي الجنسية والأستاذ الشهير في جامعة برنستون (Princeton) «الإسلام، منهج حياة»[1] (Islam, A Way of Life) (1970).

في (ص 53) يقول الدكتور حتي «. . . نجد المسلمين يأبون أن يسمّوا (محمديين) بالمعنى الذي يُسمى به النصارى (مسيحيين). وهؤلاء المستشرقون المتأخرون الذين لا يزالون يُطلقون هذه التسمية غير المقبولة ـ يضيف الدكتور فروخ (الخاطئة) ـ على المسلمين إطلاقاً هيّناً يجب أن يعلموا أنه لا يحق لهم أن يسموا أمةً باسم لا تحبه. إن المسلم، في اللغة، هو الذي أسلم نفسه لله (خضع لإرادة الله). فالإسلام ـ من أجل ذلك ـ ليس ديناً محمدياً (ليس ديناً أوجده محمد)، ولكنه دين التسليم بإرادة الله».

في كتابه هذا ينقل عن الدكتور حتي (ص 56) ما يورده عن النبي محمد قوله: «إذا نحن نظرنا إلى محمد من خلال الأعمال التي حققها، فإن محمداً الرجل

(1) دار العلم للملايين، بيروت، طبعة أولى 1972.

والمعلم والخطيب ورجل الدولة والمجاهد يبدو لنا بكل وضوح واحداً من أقدر الرجال في جميع أحقاب التاريخ. لقد نشر ديناً هو الإسلام، وأسس دولةً هي الخلافة، ووضع أساس حضارة هي الحضارة العربية الإسلامية، وأقام أمة هي الأمة العربية. وهو لا يزال إلى اليوم قوة حية فعّالة في حياة الملايين من البشر».

ب ـ كتاب التبشير والاستعمار في البلاد العربية:

في هذا الكتاب الذي وضعه بالاشتراك مع الدكتور مصطفى خالدي كما أشرنا، يعرض لاستغلال المبشرين لبعض الطلاب الذين يذهبون إلى جامعات الغرب فيقول (ص 88 ـ 89):

«ومما لا ريب فيه أن ذهاب الطلاب الشرقيين إلى أوروبة وأميركة يكسبهم شيئاً من أساليب الحياة الغربية ومن الاتجاه الغربي في التفكير والعلم والسلوك وما إلى ذلك. ولا ريب أيضاً في أن لذلك حسناته وسيئاته. ولكن المبشرين يريدون أن يفيدوا من دراسة الطلاب الشرقيين في الخارج أمراً آخر. إنهم يريدون أن يجعلوا من هؤلاء الطلاب «نصارى» بالفعل أو ممالئين للنصرانية. ويدخل في هذا الباب زواج المسلمين بالغربيات، الأوروبيات والأميركيات...». ثم يستشهد برأي للمستشرق المبشر والمستشار الشرقي في وزارة الخارجية الفرنسية، لويس ماسينيون الذي يقول: «إن الطلاب الشرقيين الذين يأتون إلى فرنسا يجب أن يكوّنوا بالمدنيّة المسيحية».

وفي هذا الكتاب يرّد على المستشرق النمساوي الدكتور غوستاف فون غرونيباوم (Gustave Von Grunebaum) (1909 ـ 1972) الذي انتقد كتاب الدكتور فروخ «عبقرية العرب» (ص 249 ـ 251): «ولا ريب في أن الدكتور غرونيباوم لا يرمي إلى انتقادي شخصياً بقدر ما يريد أن يحطّ من شأن النتاج العربي الإسلامي في الثقافة، كما هو ظاهر في موقفه من الجُمل التي ينتزعها من كتابي... ثم إن اتجاهه في كتابه دالّ على ذلك.

وفي كتابي هذا مقطع عن الدور الذي قام به العرب بنقل الفلسفة من العالم اليوناني القديم إلى العالم الأوروبي في العصور الوسطى. في هذا الشاهد: (ولولا

ذلك... لما أمكن الغرب اللاتيني الكاثوليكي أن يتصل بالغرب اليوناني الأرثوذكسي). تناول غرونيباوم هذه الجملة على الصفحة 163 ثم على الصفحة 164 وفي حاشية طويلة على الصفحة 164 نفسها وكذب عليّ كذباً وافترى عليّ افتراء أنا بريءٌ منهما.

قال: «إن الإعجاب بالنفس لا يعرف حداً. إن السنّي اللبناني عمر فروخ (المولود عام 1906) يؤكد لقرائه الذين يجب أن تكون بعض أفكاره قد وصلت إليهم، بمثل هذا الشكل المدوّي... إن العرب بعد أن رفعوا عن أعناق البشر نير المذاهب القديمة... أخرجوا الناس من ظلمات الجهل. وهو لا يدّعي فقط أنه لولا النقول العربية لكتب المفكرين اليونانيين لما استطاع الغرب أن يعرف النتاج الهلّيني (الثقافة اليونانية)، ولكن يزيد، أنه لولا العرب لكان من المستحيل تماماً على الغرب اللاتيني الكاثوليكي أن يتصل بالشرق اليوناني الأرثوذكسي». إن هذا الكلام، على الرغم من أنه صحيح ولا ادعاء فيه أو تبجح، ليس قولي أنا، وإنما استشهدت به من كتاب للدكتور سارطون، شيخ مؤرخي العلم في العصر الحديث.

والإشارة إلى كتاب سارطون ظاهرة في حاشية كتابي مع أرقام الصفحات. وأنا أعتقد في الدرجة الأولى أن جورج سارطون الكاثوليكي أدرى بحقيقة الصلات بين العالم الكاثوليكي والعالم الأرثوذكسي من غرونيباوم اليهودي(*). ثم إن الدكتور غرونيباوم، لو كان يريد العلم والحقيقة في انتقاده، لما وجّه كلماته النابية إليّ وإلى الثقافة العربية الإسلامية، بل لناقش الدكتور سارطون مناقشةً علمية غايتها تبيان وجه الحق في هذه القضية. ولكن القضية ليست قضية علم أو حق، إنها تحامل واستعمار. إن الدكتور غرونيباوم قد سلك المسلك الذي أملاه عليه إيمانه وبيئته، وسأسلك أنا المسلك الذي يمليه علي إيماني وتمليه بيئتي. ثم إن في فضائل الإسلام والعرب ما يغنيني ويغني كل مسلم وكل

(*) غرونيباوم ليس يهودياً بل هو نبيلٌ نمساوي. والأمر غير مهمٍ على أي حال (المحرّر).

عربي عن أن يكذب على التاريخ وعلى الحقيقة وعلى الحق. وكنت أود أن لو فعل الدكتور غرونيباوم مثل فعلي».

ج ـ كتاب «غبار السنين»

وفيه خواطر تدور حول أساتذته الذين درس عليهم في المانيا وفي فرنسا. وقد أشرت إلى ذلك في حاشية التمهيد. فلا فائدة من إعادته هنا. وعلى العموم فهو يقدّرهم ويعترف بعلمهم وبفضلهم عليه.

د ـ بحثه «المستشرقون: ما لهم وما عليهم».

وفي هذا البحث يعرّف المستشرقين فيقول: (ص 54) «المستشرقون طبقة من الناس كالأدباء والفقهاء والعلماء والمؤرخين والفلاسفة، فيهم البارع والعادي والخائب، وفيهم الأمين والخابط والخائن، وفيهم القادر والضعيف والعاجز. ومن الظلم والجهل معاً أن نحكم على أحد من اسمه، فلا بدّ من النظر إلى أعمال الناس قبل أن نجعلهم أصنافاً في علّيين أو في الأعراف أو في جهنم».

إلى أن يقول: «لا جدال في أن الاستشراق (اشتغال نفر من العلماء الغربيين بأحوال الشرق) قد نشأ بعد الحروب الصليبية بعوامل سياسية غرضها إفهام الغربيين أحوال الشرقيين كي يصبح من السهل على رجال السياسة الغربيين أن يعالجوا أمور الناس العملية في الشرق الغني معاملةً تستفيد منها الدول الغربية القوية. وكذلك كان للاستشراق غاية دينية لخدمة المبشرين الذين أرادوا أن ينشروا ديانتهم بين الشرقيين من مسلمين وغير مسلمين، أما الذين انطلقوا من إعجاب خالص لمعرفة أدب العرب خاصة وفلسفة العرب وعلوم العرب فهم قليلون إذا نحن قسناهم بالذين رغبوا في الاستشراق اندفاعاً في أهدافهم السياسية والدينية».

ثم يضيف قائلاً: إن أوائل المستشرقين منذ القرن العاشر للميلاد (الرابع للهجرة) ـ إذا جازت التسمية كانوا من الرهبان خاصة، ذلك لأن العلم كان في ذلك الدور من تاريخ أوروبا يكاد يكون قاصراً على رجال الكهنوت. فلا عجب إذن إذا نحن قلنا إن جربرت الفرنسي الذي تسنَّم منصب البابوية باسم سيلفستر

الثاني (999 ـ 1003م/ 389 ـ 393هـ) كان أول المستشرقين، كما كان أول بابا فرنسي يرقى سدّة الفاتيكان.

وفي (ص 55) يستطرد فيقول: «ومنذ القرن السادس عشر للميلاد (العاشر للهجرة) بدأ الاستشراق بالمعنى المقصود عندنا الآن (الاهتمام باللغات الشرقية: العربية والفارسية والتركية خاصة ـ الاهتمام بجمع المخطوطات العربية لنشرها ـ الكتابة في موضوعات شرقية: دينية ولغوية وأدبية).

في هذا الدور المتقدم بدأ الاستشراق العلمي يستخدم في المصالح السياسية الأوروبية. كان المستشرقون يعيّنون سفراء في البلاد الإسلامية (في الدولة العثمانية خاصّة). وقد كانت المهمة الأولى لهؤلاء العلماء باللغات الشرقية وبالموضوعات الشرقية وبمعرفة الأحوال الاجتماعية والنفسية للشعوب الإسلامية: فهم البلاد الإسلامية وفهم اتجاهات أهلها لاستغلال خيرات هذه البلاد.

هنا يجب أن نفرّق بين طبقتين من هؤلاء المستشرقين: طبقة المستشرقين في الدول الكبيرة (كأنكلترا وفرنسا وهولندا) إذا كان لها مستعمرات وبقية الدول التي ليس لها مستعمرات (كالدانمارك وأسوج ثم المانيا إلى حدّ ما). وكان الغالب على المستشرقين في الدول الاستعمارية قلّة الأمانة في البحوث الشرقية (والدينية والثقافية منها خاصة)، وإن كان قد شذّ عن ذلك نفر من المستشرقين لا نستطيع أن ننكر أمانتهم. غير أن هذا لايعني أن نفراً من المستشرقين في دول المعسكر الصغير لم يُجانبوا الأمانة العلمية.

وهناك على كل حال حقيقة لا يجوز أن نمر بها غافلين:

إن نَفَراً من المستشرقين الذين وضعوا القواميس العربية ونشروا الكتب العربية ثم كتبوا البحوث الإضافية بلغاتهم في أحوال البلاد الإسلامية قد قاموا بعملهم هذا بأثر من رغبتهم في العلم والمعرفة. ففضلهم في ذلك غير مُنكر. أما أن يكون رجال دولهم قد استغلوا هذه الجهود لاستغلال العرب والمسلمين فأمر آخر. وأنا هنا، وفي هذا المقطع، لا أريد أن أحكم على النيّات.

ثم هناك أمر آخر تحسن الإشارة إليه هنا:

إن المستشرقين كانوا طبقة من العلماء الذين خصّوا أوقاتهم بموضوعات معيّنة. من أجل ذلك كانوا أكثر فهماً للموضوعات التي طرقوها من الناس العاديين. ولكن ليس معنى هذا أنهم لم يكونوا يُخطئون. إن المستشرق ـ أو المستعرِب ـ مهما يكن قديراً في معرفة اللغة العربية، فإنه لا يمكن أن يكون له من الحسّ اللغوي ما للعالم العربي الأصيل.

وكذلك المستشرق الذي يدرس الأدب العربي ويُجيد تفسيره اللغوي والبلاغي ويدرك الأحوال التاريخية والثقافية الملابسة له، إن هذا المستشرق لا يمكن أن تكون له الذائقة الأدبية التي تكون للأديب العربي بالوراثة الاجتماعية. ويَحسُن أيضاً أن يكون لنا لفتة عامة قبل أن نأتي إلى نفر من المستشرقين بأسمائهم وطبقاتهم.

ما الوجه الممكن في سوء الظنّ في عمل شامبليون Champollion (1790 ـ 1832) الفرنسي الذي فك رموز الكتابة الهيروغليفية (المصرية القديمة) ومكّن العلماء جميعاً من معرفة كنوز الثقافة القديمة في مصر؟ ثم ما الوجه في سوء الظن في المستشرق الإنكليزي مارغوليوث (1858 ـ 1940) الذي نشر معجم الأدباء لياقوت الحموي بتصوير مخطوطة ذلك الكتاب؟ هذا مع العلم اليقين بأن مارغوليوث من أشدّ أعداء الثقافة الإسلامية ومن الذين وضعوا جميع جهودهم في خدمة السياسة.

فالنظر في الاستشراق وفي المستشرقين ـ كالنظر في كلّ أمرٍ آخر وفي كل قوم آخرين ـ يجب أن يكون إلى عمل الفرد لا إلى اسمه. فإن حَسُنَ الاسم كما يَحسنُ العمل، فذلك خير وأفضل، وهنا سؤال جديد: أيكون العربي أو المسلم مستشرقاً؟ أقصد: أيسمّى أحدهم مستشرقاً، ولو قام بعمل يقوم به المستشرقون عادة؟

إن الدكتور فيليب حتي عربيّ اكتسب الجنسية الأميركية في عام 1924 ثم عاش منذ ذلك الحين في الولايات المتحدة وتوفي فيها. وقد كتب معظم ما كتبه ـ إن لم أقل جميع كتبه المشهورة باللغة الإنكليزية ـ وله مواقف تشبه مواقف

المستشرقين. ولكن الدكتور فيليب حتي ليس مستشرقاً بالمعنى الذي نقصده هنا. إن كل ما فعله لا يخرجه من تربيته العربية الأولى. ربّما كان فيليب حتي عربياً مخطئاً أو ظالماً لقومه، ولكنه ليس مستشرقاً.

وهناك مثال أكثر وضوحاً: فؤاد سزكين.

فؤاد سزكين مسلم تركي[1] يعيش في أيامنا. وقد خطر له أن يحرّر كتاب تاريخ الأدب العربي للمستشرق الكبير المعروف كارل بروكلمان (ت 1956) وأن يستمر فيه. ثم وجد أن ذلك شبه مستحيل أو مستحيل. إن الكتاب ضخم وفيه موضوعات كثيرة (لا ريب في أنه كان لبروكلمان مساعدون له في عمله)، فخطر لفؤاد سزكين أن يتناول عدداً من وجوه كتاب بروكلمان وأن يُنشئها إنشاء جديداً دقيقاً واسعاً. وقد وضع فؤاد سزكين الأجزاء التي أنجزها باللغة الألمانية (لغة المستشرق بروكلمان). ومع هذا فإن فؤاد سزكين ليس مستشرقاً. إن نفراً منا يسيئون الظنّ بالمستشرقين ولا يرون فيهم خيراً».

ثم ينتقل في (ص 57) إلى اتخاذ موقف منصف فيقول:

«ليس الاستشراق عدواً للإسلام وللغة العربية. هناك نفر من المستشرقين مثل نفر منا أيضاً قصدوا أن يسيئوا إلى اللغة العربية وإلى الإسلام بعوامل من السياسة الاستعمارية، كما أن هناك نفراً آخرين من المستشرقين خدموا الثقافة الإسلامية واللغة العربية خدمة جليلة لم يكتب للعرب أنفسهم أن يقوموا بمثلها. وكذلك هنالك في المستشرقين (كما نجد في طبقات كثيرين من الباحثين) مَنْ كانوا أشخاصاً عاديّين في علمهم وفي جهدهم وفي غاياتهم».

III

ثم يقسّم المستشرقين إلى قسمين: **المُحسنين والمُسيئين.**

ويذكر لنا أسماء عدد من هؤلاء وهؤلاء منوّهاً ببعض ما قدموه راداً على بعضهم الآخر.

---

(1) يحمل الجنسية الألمانية وهو أستاذ في جامعة فرانكفورت.

المحسنون:

ويبدأ بالمحسنين فيقول (ص 58):

«أول هؤلاء المستشرقين المحسنين أولئك الذين جمعوا المخطوطات العربية وحفظوها ثم فهرسوها في قوائم وسهّلوا سبيل الوصول إليها. ويؤسفني أن كثيراً من المخطوطات التي بقيت في موطنها قد ضاع بعضها، كما أن جانباً كبيراً منها يصعب اليوم الوصول إليه».

ثم يذكر من بين هؤلاء:

المستشرق الألماني غوستاف فلوغل (Gustav Flügel) (1802 ـ 1870) الذي وضع الفهارس للكتب الشرقية (من عربية وغيرها). وأول من وضع فهرساً لألفاظ القرآن الكريم سنة 1840. كما فهرس كتاب «كشف الظنون» لحاجّي خليفة.

ثم يذكر المستشرق الهولندي آرنت يان فنسنك (Arent Jan Wensink) (1882 ـ 1939) الذي فهرس ألفاظ الحديث الشريف في أربع عشرة مجموعة من مجاميع الحديث ـ والمستشرق الإيطالي أغناطيوس غويدي (Ignazio Guidi) (1844 ـ 1935).

ثم يتناول نشرهم للكتب العربية فيقول:

«ثم توالى طبع المصادر العربية في أنحاء أوروبة على يد المستشرقين: «تاريخ الطبري»، «تاريخ ابن الأثير»، «الطبقات الكبرى» لابن سعد، وغيرها عشرات رأت النور في المطابع قبل أن تطبع في البلاد العربية. ولا يحسن أن ننسى «نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب» لأبي العباس المقّري (ت 1041 هـ). ثم يعلّق على ذلك قائلاً: «ونجد نحن اليوم ـ مع الأسف الشديد ـ أناساً منّا يأتون إلى كتاب قد حققه خمسة أو ستة من المستشرقين في المدة الطويلة من عمرهم فيعيدون طبع ذلك الكتاب في مدة يسيرة ويكتبون على صفحته الأولى «تحقيق» أو «بتحقيق»... ثم يوردون أسماءهم».

إلى أن يتناول موضوع ترجمة أو نقل الكتب العربية إلى اللغات الأوروبية منذ

قديم العصور أمثال القرآن الكريم وكتب العلم والطب والفلك ومقدمة ابن خلدون وكتاب ألف ليلة وليلة وكثير سواها التي قام بها المستشرقون منذ عدة قرون فاستفادت منها أوروبا.

ثم يقول (ص6) مضيفاً إلى ذلك:

«كتب المستشرقون عدداً كبيراً جداً من البحوث في الموضوعات العربية المختلفة: في دائرة المعارف الإسلامية وفي المجلات التي أسسوها لتلك البحوث خاصة وفي كتب مستقلة، وجاؤا بنظريات أثبتوها بالبراهين على فضل العرب وفضل الثقافة العربية، مما غفل عنه العرب أنفسهم أو قصّروا في مجاله. ثم يورد أسماء العديدين من المستشرقين ومن مختلف الجنسيات نذكر منهم:

أدوارد وليم لاين (Edward William Lane) (1801 ـ 1876) وهو بريطاني صاحب القاموس العربي ـ الإنكليزي.

ـ راينهارت دوزي (Reinhart Dozy) (1820 ـ 1883) وهو هولندي وصاحب كتاب «تاريخ مسلمي إسبانيا»، وله أيضاً «ملحق القواميس العربية».

ـ ألفرد فون كريمر (Alfred von Kremer) (1828 ـ 1889) وهو نمساوي وصاحب تاريخ الثقافة الشرقية في أيام الخلفاء «تاريخ التمدن الإسلامي».

ـ تيودور نولدكه (Theodor Nöldeke) (1836 ـ 1930) وهو ألماني له «تاريخ القرآن».

ـ غوستاف لوبون (Gustave Lebon) (1841 ـ 1931) وهو فرنسي صاحب كتاب «الحضارة العربية».

ـ كارلو نلّينو (Carlo Alfonso Nallino) (1872 ـ 1938) وهو إيطالي له كتاب «علم الفلك عند العرب في القرون الوسطى».

ـ ميغال آسين بلاسيوس (Miguel Asin Palacios) (1871 ـ 1944) وهو أسباني

صاحب النظرية القائلة بأن دانتي الشاعر الإيطالي الكبير، قد تأثر في رائعته «المهزلة الإلهية» بكتاب «الفتوحات المكيّة» لابن عربي.

- كارل بروكلمان (Carl Brockelmann) (1868 ـ 1956) وهو ألماني صاحب الكتاب الشهير «تاريخ الأدب العربي». وكثير غيرهم.

المسيئون

ثم ينتقل إلى الكلام على المسيئين من المستشرقين بحق الأمة العربية واللغة العربية والحضارة العربية والإسلام وهم كثر فيقول (ص 61):

«أما المستشرقون الذين أساءوا عفواً (وهؤلاء معذورون) أو قصداً (هؤلاء كثيرون جداً) فإن عددهم يعيا على الحصر، وخصوصاً أولئك الذين يعاصروننا.

ومن الذين أساءوا عفواً (من غير أن يقصدوا) تيودور نولدكه ـ برغم كتابه القيّم «تاريخ القرآن» ومقاله الواسع عن القرآن في الطبعة الحادية عشرة من دائرة المعارف البريطانية (1911). مرّ نولدكه بالآية الكريمة في سورة يوسف (12: 49) ﴿ثم يأتي من بعد ذلك عامٌ فيه يُغاثُ الناسُ وفيه يَعْصِرُونَ﴾، فزعم أن كلمة «يُغاثُ» هنا تدل على حالة الجو في مصر رغم أنّ مصر لا تعتمد في خصبها على المطر، بل على فيضان النيل.

ولقد غاب عن نولدكه أمر يسير في الصرف:

إن الفعل المجهول «يُغاثُ» يمكن أن يكون مصوغاً من الفعل المجرّد «غاث» (غاث الله البلاد: أنزل فيها الغيث أي المطر) ومن الفعل المزيد «أغاث» (أغاث الله عباده: أجاب دعاءهم وأنقذهم). وقد ظن نولدكه أن المقصود بالآية الكريمة المعنى الأول، مع أن المقصود هو المعنى الثاني (وإن كان نفر من المفسّرين قد أخطأوا في مثل ذلك)[1].

أما الذين أساءوا قصداً أو جهلاً أشدّ من قصد السوء فنذكر منهم بيكر

(1) بينما في تفسير الإمامين الجليلين (المحلي والسيوطي): «(عامٌ فيه يُغاث الناس) بالمطر».

(Becker, Carl Heinrich) (1876 ـ 1933) الألماني وكان وزيراً للمعارف (1925 ـ 1930) قبل مجيء هتلر إلى الحكم. أسّس بيكر مجلة «الإسلام» (Der Islam) (1910). وله كتاب عنوانه «دراسات في الإسلام» (جزأن 1924 ـ 1932). وله من الإساءات الجملة التالية:

«لا سبيل إلى السيطرة على المسلمين ما دام هذا القرآن موجوداً». ثم يأتي نفر كثيرون من المستشرقين من أمثال وليم موير (Sir William Muir) (1819 ـ 1905) وهو إنكليزي وله كتاب «حياة محمد». وأغناطيوس غولدزيهر (Ignaz Goldziher) (1850 ـ 1921) المجري، وله كتب من عناوينها: «الخرافات عند العبرانيين» ـ «دراسات محمّدية» (إسلامية) «محاضرات في الإسلام» (1910). ومن هؤلاء أيضاً دافيد (داوود) صموئيل مارغوليوث (D. S. Margoliouth) (1858 ـ 1940) وهو بريطاني، له «معجم الأدباء» لياقوت الحموي (نشره بالتصوير الفوتوغرافي)، كما نشر كتباً أخرى. ثم له «حياة محمد». ومارغوليوث كان يهودياً فصبأ إلى المسيحية (قيل: بل أبوه فعل ذلك).

إن هؤلاء المستشرقين المسيئين وأمثالهم يقولون إن الإسلام شكل من أشكال النصرانية ـ أو إن أحسن ما في الإسلام مأخوذ من النصرانية ـ أو إن ما في القرآن مأخوذ من التوارة...

إن هؤلاء وأمثالهم مسيئون إساءة يحمل عليها الحقد وشيء من الجهل، أما المستشرقون السياسيون فسأكتفي بالكلام على اثنين منهم وهما وليم مارسيه ولويس ماسينيون الفرنسيان.

سأبدأ بلويس ماسينيون الذي كان مستشاراً للشؤون الشرقية في وزارة الخارجية الفرنسية... ثم إنه اهتم بالتصوف المتطرف... فالتشجيع على دراسة التصوف المتطرّف والتشجع على ممارسته وحدهما ضرر كبير.

ثم يختم قائلاً (ص 62):

كان في المستشرقين يهود، وكان فيهم نصارى من الكاثوليك ومن البروتستانت. وكان فيهم المحسنون كما كان فيهم المسيئون. ولكن أنا الآن

أنظر إلى ما عملوا لا إلى ما كانوا: فالمحسن منهم من أحس في دراسته الثقافية الإسلامية (وكان مخلصاً لوجه العلم) بقطع النظر عن أصله. والمسيء منهم من جانب سبيل العلم. ويخلص مستشهداً بقول الفيلسوف ابن رشد:

«يجب بالشرع النظر في القياس العقلي وأنواعه، كما يجب النظر في القياس الفقهي. . . فبيّن أنه يجب علينا أن نستعين على ما نحن بسبيله بما قاله من تقدّمنا في ذلك، سواء أكان (من تقدمنا) مشاركاً لنا في الملّة أم غير مشارك لنا في الملّة. . . وإذا كان هذا هكذا، فقد يجب علينا، إذا ألفينا لمن تقدّمنا من الأمم السالفة، نظراً في الموجودات واعتباراً لها بحسب ما اقتضته شرائط البرهان، أن ننظر في الذي قالوه من ذلك. فما كان منها موافقاً للحق قبلناه منهم وسررنا به وشكرناهم عليه. وما كان منه غير موافق للحقّ نبّهنا عليه وحذّرنا منه وعذرناهم».

هـ ـ وفي آخر مقال له حول المستشرقين يعرّف المستشرق كما يلي وهو لا يختلف عن التعريف الذي أوردناه سابقاً: «المستشرق عالِم أجنبي (أوروبي أو أميركي) غير مسلم (مسيحي أو يهودي) يُعنى بالثقافة الإسلامية من خلال اللغة العربية. والمستشرقون جماعات كالمهندسين والمحامين والفقهاء والأدباء والتجار والصنّاع والعمال.

وفي كل جماعة طبقات، وكل طبقة فيها العالِم والجاهل، والصادق والكاذب، والمخلص وغير المخلص. . .»

IV

ثم يقسّم المستشرقين إلى خمس طبقات:

فالطبقة الأولى تبدأ بالسيئين وهو يستدرك قبل أن يتناولهم فيقول لنا: إنه لا يقول ذلك عنهم انطلاقاً من موقف مسبق كما شأن الأشخاص الذين لا يعرفون اللغات الأجنبية منا، أو لا يقرؤون كتب المؤلفين مباشرة. بل يقرؤون أشياء من الصحف أو غيرها يبنون على أساسها أَحكامهم، وبالتالي لا يريدون، سلفاً أن

يروا في المستشرقين خيراً.

ويتناول الفرنسي أرنست رينان (Ernest Renan) (1823 ـ 1892) فهو في نظره فيما كتبه عن الإسلام لا يقف موقفاً منصفاً بل إنه يتحامل على الإسلام وكذلك يفعل هنري لامنس (Henri Lammens) (1862 ـ 1937) وهو راهب يسوعي من أصل بلجيكي.

ثم يذكر الإنكليزيين وليم مور وصموئيل مرغوليوث وقد مرّ ذكرهما.

والطبقة الثانية: يتناول فيها ثلاثة مستشرقين: «فيدمان» ثم «سوتر» ثم «فبكه» وهؤلاء عنوا بتاريخ العلوم عند العرب وفي هذا الحقل لا مجال للاساءة إلى العرب أو المسلمين فهم إلى حد ما منزّهون.

الطبقة الثالثة: وتضم الذين اهتموا بطبع القرآن الكريم ـ أول طبعة في مدينة هامبورغ بألمانيا عام 1694 ـ وفهرسة مفرداته وكذلك فهرسة ألفاظ الحديث. وهذه الأعمال تخدم الإسلام والمسلمين.

الطبقة الرابعة: تضم الذين اهتموا بنشر الكتب العربية وقاموا بتحقيق كتب عديدة تحقيقاً علمياً دقيقاً ونشروا: تاريخ الطبري وتاريخ ابن الأثير وتاريخ أبي الفداء وكتاب نفح الطيب للمقّري وكثير غيرها. وكل هذا فائدة وبركة.

الطبقة الخامسة: وهي تضم المستشرقين الذين نقلوا من التراث العربي والإسلامي لإغناء ثقافتهم. ونذكر من بينهم المستشرق الألماني رُوكَرْت (Friedrick Rückert) (1788 ـ 1866) الذي ترجم مقامات الحريري إلى اللغة الألمانية.

وهنا أيضاً عبد الرحمن نيكل (A. R. NYKL) (1885 ـ) البوهيمي (التشيكوسلافي) الأصل الأميركي الجنسية الذي وضع كتاباً مفصلاً في أصل الشعر البروفنسالي (الفرنسي القديم) مع الدلالة على جذوره العربية.

ونيكلسون (R. A. Nicholson) (1868 ـ 1945) الإنكليزي الذي وضع كتاب «تاريخ العرب الأدبي» ونقل نماذج الشعر فيه إلى اللغة الإنكليزية شعراً، كما نقل

عدداً من الآيات القرآنية الكريمة إلى الإنكليزية شعراً أيضاً. وفي هذا الكتاب ذوق رفيع وإنصاف جميل.

ثم يُطري ما قام به كل من تيودور نولدكه في أبحاثه عن القرآن الكريم. وليفي بروفنسال لما ألفّه حول تاريخ العرب في الأندلس وحول الثقافة والحضارة الإسلاميتين.

ويختم مقالته بهذه الفقرة المنصفة فيقول:

«بقيت لي كلمة أوجهها إلى الذين يشتمون المستشرقين جميعاً ولا يرون للاستشراق فضيلة. أولئك ليس لهم إنصاف في تقييم الموضوعات المعالجة. بل يبنون أحكامهم استناداً إلى كره الأسماء».

V

كلمة أخيرة:

من حق الدكتور عمر فروخ أن يدافع عن دينه ولغته وتراثه وحضارته. هذا أمر لا يُنكره عليه منصف. فهو لا يترك مناسبة إلاّ ويثبت ذلك. ومن واجبه كذلك أن يتصدى للذود عن كرامته وكرامة أمّته وهو على العموم يقف موقف المنصف المتزن يوازن ويدقّق قبل أن يلقي الكلام على عواهنه ويهبّ لمجرد أن مستشرقاً تناول الإسلام بسوء وتجنّى عليه أو تحامل على الأمة العربية والإسلامية.

ولكن أحياناً يشط به القلم فينسب إلى المستشرقين مواقف ما قصدوا إليها أو يفسر كلامهم على غير محمله. فإذا ما انتقد بعضهم أحياناً الدين ـ أي دين ـ فلا داعي إلى توجيه الاتهامات لهم ونعتهم بالتحامل والتبعية والتبشير. فهم قد وقفوا مثل تلك المواقف المنتقدة أمام النصوص المسيحية وطبقوا عليها المنهج العلمي والتاريخي ونظرية ديكارت التي تقوم على الشك. فليس بالضرورة أن يكون كل انتقاد تحاملاً أو أن يكون صادراً عن غايات شريرة أو مبيّتاً لمآرب استعمارية.

فهو مثلاً يوجه النقد لنولدكه، المستشرق الألماني الكبير، الذي خدم بأبحاثه

الإسلام ـ بما لم يستطعه سواه ـ لأنه فسّر كلمة «يُغاث» في الآية 49 من سورة يوسف (12 : 49):

«ثم يأتي من بعد ذلكَ عامٌ فيه يُغاثُ الناسُ وفيه يَعْصِرُون». على أنها تفيد المطر. ومنها الغيث: أي المطر. ان تفسير نولدكه مطابق لتفسير الأمامين الجليلين (المحلي والسيوطي) اللذين يشرحان الآية كما يلي:

«(ثم يأتي من بعد ذلك) أي السبع المجدبات (عامٌ فيه يُغاثُ الناسُ) بالمطر (وفيه يَعْصِرُون) الأعناب وغيرها لخصبه». وأنا لا أرى أن تفسير نولدكه خطأ وإن كانت كلمة «يُغاث» تحمل على وجهين = غاثه يغوثه غوثاً: أَعانه ونصره. أو المعنى الذي ذكره نولدكه= المطر.

وهو يأخذ على الدكتور فيليب حتي بعض ما يأخذه على سائر المستشرقين بينما فيليب حتي يقول في مقدمة كتابه: «صانعو التاريخ العربي»[1] (Makers of Arab History) عن النبي محمد كلاماً لا يستطيع أي مسلم أن يزيد عليه:

«لقد سجّل لنا التاريخ عدداً من أسماء رجال أوجدوا ديانات، وأسماء رجال آخرين، بنوا أمماً، وغيرهم أسسوا دولاً، غير أنه لم يسجل لنا اسم رجل واحد، سوى النبي محمد، كان صاحب رسالة وباني أمة ومؤسس دولة».

وقد تختلف الآراء وتتنوع الاجتهادات وتتباين التفسيرات وتتمايز المواقف وليس من الضروري أن يتفق جميع الباحثين على نتيجة واحدة وأن يُجمعوا على رأي واحد. فالمسألة ليست مسألة علمية لا تقبل التأويل.

تبقى مسألة أخرى لا أوافقه عليها. فهو لا يعتبر فؤاد سزكين (Fuad Sezkin) (1924 ـ) مستشرقاً لأنه مسلم تركي. إن سزكين أستاذ في جامعة فرانكفورت ويحمل الجنسية الألمانية ويعمل في حقل تاريخ الأدب العربي ويكمل ما قام به بروكلمان. فالأدب العربي بالنسبة إليه أدب غريب وكذلك اللغة العربية

---

(1) نشر في نيويورك 1968. نقله إلى العربية الدكتور أنيس فريحة وراجعه الدكتور محمود زايد ونشرته دار الثقافة في بيروت سنة 1969.